

ثقافة أبي زيد القرشي من خلال جمهرته

صبا عبد الستار سلطان

جامعة بابل/كلية التربية للعلوم الإنسانية

The Culture of Abi Zaid Al-Qurashi Through his Book (Al-Jamhara)

Saba Abdul Sattar Sultan

University of Babylon / College of Education for Human Sciences

s-a-sultan@yahoo.com

Abstract

The research deals with the cultural entity of Abi Zaid Al-Qurashi who is the writer of the only book Jamharat Ash'ar Al-Arab in Al-Jahiliya wel Islam (The Concise Book of Arabs' Poetry Before and After Islam). There is no reference for this entity except this book because of the scarcity of the references that talk about this figure that is important to read and analyze.

الخلاصة:

يرصد البحث التكوين الثقافي لأبي زيد القرشي صاحب المؤلف الوحيد (جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والاسلام)، هذا التكوين الذي لا يدلنا عليه سوى هذا المؤلف، إذ شحّت المصادر بالحديث عن هذه الشخصية وعن ثقافتها فكان اللجوء إلى الكتاب واستقراء ثقافة ابي زيد أمر لا بد منه.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، التمركز، التقليد، التراث.

عتبة

عُني العرب بالشعر وتمثلت تلك العناية فيما يسمى بـ "مجموعات الشعر" وهذه المجموعات أقرب ما تكون إلى ديوان الشعر بما تحتويه من أشعار لعدد من الشعراء. ولم يصل الدارسون المحدثون إلى رأي قاطع أو رؤية واضحة فيما يتصل بمصادر الأدب الأولى، ويبدو من الأخبار الملتقطة من هنا وهناك أن جمع الشعر واكب الحركة العلمية نتيجة الاهتمام به في العصر الأموي ونشوء طبقة من العلماء والرواة المتخصصين بجمعه وتمحيصه وتمييز الصحيح من المنحول، وقد أثمرت رحلة التدوين والرواية للأدب الجاهلي وما بذل خلالها من جهود كثير من العلماء المخلصين وما داخلها من خلط أو وضع، حفز إلى التمحيص والمراجعة والتدقيق ثماراً منها استخلاص عدة أعمال علمية يكمل بعضها ويوثق في دراستها ويتشكل منها المصادر الجامعة للأدب الجاهلي. فبدأت تظهر المجموعات الشعرية التي شكلت فيما بعد ما يسمى بمصادر الشعر العربي القديم والتي تنوعت بين شعر القبائل، ودواوين الشعر المنفردة وكتب الأدب العامة، وكتب الاختيارات التي ظهرت إلى جانب صناعة دواوين الشعراء منفردين أو شعراء قبيلة، وجمهرة اشعار العرب يمثل احد كتب الاختيارات هذه، لف الغموض شخصية مؤلفه وثقافته، فحاول البحث تسليط الضوء على ثقافته من خلال مؤلفه الوحيد هذا. إن رواية الشعر العربي وحفظه عن ظهر قلب لم تكن أمراً هيناً وإنما هي حرفة صعبة تتطلب شد الرحال إلى البوادي والأصقاع المختلفة " وكان القرن الثاني الهجري بداية لاستقلال الرواية عن غيرها من العلوم الإسلامية بعد إن كانت تتداخل معها في أغلب الأحيان وأصبحت عملاً وعلماً يطلب لذاته"⁽¹⁾، وأصبحت منزلة الرواية " لا تقل في السمو عن أرفع منزلة وصل إليها الشعراء في ذلك العهد"⁽²⁾. وإذا كانت المعلقة تمثل أول اختيار مدون عند العرب فالجمهرة تعد أول اختيار مبوب ومقسم إلى أبواب بحسب تصنيف المؤلف " وربما كان صاحب الجمهرة هو أول أصحاب الاختيارات الذين قسموا حصيلة مختاراتهم إلى أقسام متعددة بأسماء مختلفة جذابة"⁽³⁾.

(1) حماد الراوية وجهوده في رواية الشعر العربي، د. حاكم الكريطي، مجلة المورد الثقافي، ع3، مجلد 36، 2009: 80.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، 1972: 294/9.

(3) منهج التأليف عند العلماء العرب، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، ابريل، 1991: 478.

شكلت الجمهرة لأبي زيد القرشي (ت170هـ) خطاً جديداً في التأليف، واختلفت كتب الأدب في تحديد العصر الذي عاش فيه مؤلفها كما واختلفت أيضاً بتحديد سنة وفاته^(*).

سمى أبو زيد القرشي (ت170هـ) كتابه "الجمهرة" ومن خلال تقسيمها السباعي نستطيع أن نستنتج أنه أرادها جمهرة من حيث النوع، لا من حيث الكثرة إذ كان مجموع شعراء الجمهرة تسعة وأربعين شاعراً فقط، وتقع في سبع مجموعات هي (السموط أو المعلقات، المجهرات، والمنقبات، والمذهبات، والمراثي، المشويات، الملحقات) ومصطلح الجمهرة بعد ذلك ليس جديداً في ميدان التأليف عند العرب فقد كان سائداً ومتداولاً عند كثير من المصنفين قبل أبي زيد القرشي (ت107هـ) وبعده مثل (جمهرة الانساب) لأبي منذر هشام بن محمد الكلبي (202 هـ) وجمهرة اللغة لأبن دريد (321 هـ).

وتتميز (الجمهرة) عن سابقتها من كتب الاختيارات بأن صاحبها قدم لها بمقدمة غير قصيرة ينقل فيها أخباراً بعضها جانب الصواب مثل نسبة الشعر الى سيدنا آدم وآخر إلى إبليس وإلى العمالة وغيرهم من الأمم التي بادت كعاد وثمود، بل انه ذكر طرائف كثيرة عن الجن وأشعارهم، غير انه قدم فصلاً على جانب من القيمة وان كانت قصيرة نوعاً ما في أخبار كبار شعراء الجاهلية، وفي مجال الأطراف يكتب القرشي (ت170هـ) فصلاً في شياطين الشعراء ويذكر في ذلك بعض أسماء هؤلاء منهم: هبيد شيطان عبيد بن الأبرص، ومدرك بن واغم شيطان الكميث، إلى غير ذلك من الأخبار، كما يورد أبو زيد القرشي (ت170هـ) في مقدمته أخباراً عن الأعراب والشعراء وبعض ملوك بني أمية، ومهما يكن من الأمر فإن صاحب الجمهرة هو الوحيد بين اصحاب الاختيارات الذي صنع مقدمة لمختاراته مجتهداً في ان تسبغ عليها ثوباً علمياً ولو انه قد تورط في بعض الخيالات ونأى عن بعض الحقائق⁽¹⁾.

التكوين الثقافي لأبي زيد القرشي

وبالحديث عن ثقافة أبي زيد القرشي (ت170هـ) لا نجد ما يدلنا عليها سوى مؤلفه الوحيد الذي ينسب إليه وهو كتاب "جمهرة أشعار العرب". ولعلنا نستطيع أن نشرف بعض خصائص هذه الثقافة من مقولاته التي ضمنها المقدمة النقدية لهذا الكتاب والتي سبقت الاختيارات باحتلالها مساحة واسعة امتدت من الصفحة الأولى للكتاب، وحتى الصفحة الخامسة عشرة بعد المائة، أكد في أول عنوان من عناوينها على قدسية اللغة العربية بوصفها لغة القرآن فحمل الباب الأول عنوان (القرآن نزل بلسان عربي) و(إن في القرآن مثل ما في كلام العرب) وتحت هذين العنوانين دأب القرشي على رد الكثير من الكلمات التي يستعملها الشعراء العرب وتحديد الجاهليون إلى مثيلاتها في القرآن والحديث النبوي الشريف، يأخذ بإيراد الأبيات الشعرية والآيات القرآنية لإثبات غايته هذه، وكل الأشعار التي استشهد بها هي لجاهليين فأورد أبياتا لامرئ القيس وللربيع بن زياد وللنابغة والشماخ بن ضرار وعمرو بن معدي كرب ولزهير وللأعشى وللبليد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعدي بن زيد وأميرة بن أبي الصلت وبشر بن أبي خازم والمتمس، ويستمر ابي زيد في عقد هذه المقارنات وارجاع ما ورد من كلمات في الشعر الى القرآن الكريم اثباتاً لهذا الترابط وتأكيذاً لقدسية هذه اللغة، لكنها ليست اية لغة انما حصرها بلغة الشعر الجاهلي موضحاً ان الاشكالات القرآنية يمكن فهمها من خلال الشعر وهذا الشعر لا يمكن ان يكون محدثاً وانما شعر قديم، ويتجلى هذا النزوع إلى الماضي في ميل ابي زيد القرشي الى القديم واعتزازه به، إذ يعد الشعراء الذين أتوا بعد من أختارهم ما هم إلا مضطرين الى محاكاتهم إذ يقول "لما لم يوجد أحد من الشعراء بعدهم إلا مضطراً إلى الاختلاس من محاسن الفاظهم، وهم إذ ذاك مكتفون عن سواهم بمعرفتهم، وبعد فهم فحول الشعر الذين خاضوا غمار بحره وبعد فيه شأوهم واتخذوا له ديواناً كثرت فيه الفوائد عنهم ولولا أن الكلام مشترك لكانوا قد حازوه دون غيرهم فأخذنا من أشعارهم إذ كانوا هم الاصل، غرراً هي العيون من أشعارهم وزمام ديوانهم"⁽²⁾.

(*) للاستزادة ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية 7/1. ومؤلف جمهرة أشعار العرب: 179.

(1) منهج التأليف عند العلماء العرب: 478.

(2) جمهرة أشعار العرب، ابو زيد القرشي، تحقيق علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1967: 1.

ولعل مرد هذا الميل الى القديم يعود إلى احساس ابي زيد القرشي بضرورة ترسيخ الهوية العربية ف "وضع الحضارة العربية بشكل عام في هذه المرحلة كان قد بلغ من التصدع وبروز التناقضات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً درجة تجعل الحنين الى اكتشاف رؤية مركزية في ثقافة الماضي ونمط من البنية فيها دافعاً فعالاً للقيام بإعادة قراءة التراث الشعري من منظور استرجاعي مركزي صرف، يؤكد على ضرورة عناصر الاستمرارية والتكرار والتقليد في هذا التراث"⁽¹⁾، فتمثل ذلك في الالتجاء الى الشعر القديم.

ويعضد ما ذكرناه سابقاً كلام أبي زيد (ت170هـ) نفسه حين ذكر سبب تأليفه الكتاب الذي ربط فيه بين لغة العرب ولغة القرآن، اعلاءً لشأن هذه اللغة التي هي ابرز صور الهوية العربية إذ يقول " هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام الذي نزل القرآن بأسنتهم واشتقت العربية من الفاظهم واتخذت الشواهد في معاني الحديث من أشعارهم"⁽²⁾.

كما اننا نجد هذا النزوع نحو القديم فيما اختاره من قصائد لجمهرته، فقد اختار لتسعة واربعين شاعراً معظمهم من الجاهليين، وحتى من ادرك الاسلام منهم ظل محافظاً على نهجه الجاهلي في قول الشعر، وهو يرى ويقرر انهم (فحول الشعر) وهم (الاصل) وان الابداع في الشعر انما كان على ايديهم وهم السابقون اليه وكل من جاء بعدهم فهو آخذ عنهم. ثم اخذ المؤلف يحشد في مقدمته هذه كل ما من شأنه أن يرفع من شأن هذه اللغة تحت مسميات لفقرات وابواب مثل (القرآن نزل بلسان عربي) و(في القرآن مثل ما في كلام العرب) و(اول من قال الشعر) وكلها مسميات تنزع نحو اللغة الاولى، اللغة القديمة التي كانت لغة الشعر الجاهلي وهذا ما انعكس على الاختيارات التي تضمنها الكتاب فكانت رؤية ابي زيد رؤية قديمة في اختياره هذا. ثم انتقل إلى محاولة اضاءة الشرعية على كل ما قدمه سابقاً حين اورد احاديث للرسول (ص) يبين فيها موقفه من الشعر ثم تبعه بموقف الخلفاء والصحابة.

ولاشك أن اللغة تشكل اول مظاهر الهوية أياً كانت فالشعر العربي والقرآن الكريم يعدان - في فكر ابي زيد - ابرز مظاهر الهوية العربية التي باتت مهددة بوفود ثقافات مختلفة، لذلك نزع ابو زيد (ت170هـ) إلى الماضي اللغوي المشكل لهذه الهوية " فكانت الجمهرة تمثل الى درجة بعيدة إعادة قراءة للتراث من أجل كشف رؤاه المركزية وتتاسقه التقليدي ووحده المتناسكة"⁽³⁾. فابو زيد (ت170هـ) ينتمي في ثقافته إلى الثقافة العربية القديمة وترجيح القديم على الحديث. ومن خلال المقدمة التي وضعها القرشي لكتابه، نستطيع أن نلاحظ إشارات نقدية تعد تعليلاً لاختياراته في بعض النواحي، ولعل في مقدمتها سبب اختياره للشعر القديم، فهو يرى إن الشعراء الذين اختارهم هم الأصل وان من جاء بعدهم من الشعراء كانوا مضطرين إلى الاختلاس منهم إذ يقول " ونحن ذاكرون في كتابنا هذا ما جاءت به الأخبار والأشعار المحفوظة وما وافق القرآن من الفاظهم، وما روي عن رسول الله (ص) في الشعر والشعراء وما جاء عن أصحابه والتابعين من بعدهم وما وصف كل واحد منهم، وأول من قال، وما حفظ عن الجن وما توفيقه إلا بالله"⁽⁴⁾، ولعل في هذا هو ما يزال متأثراً بما أورده في صلب مقدمته من " أن أبا عبيدة قال: فتح الشعر بأمرئ القيس وختم بذئ الرمة"⁽⁵⁾، وهذا ما يفسر لنا أن جُلَّ اختيارات الجمهرة هي من الشعر الجاهلي. وعلى الرغم من أن القرشي (ت170هـ) قدّم لجمهرته بهذه المقدمة التي يمكن أن تعد طويلة نوعاً ما، إلا إن القارئ لها يشعر بأن هذه المقدمة تتفصل عن اختياراته من ناحية انه لم يضمنها إشارات يشير بها إلى اختياراته، فهو لم يذكر سبب تقديم كل طبقة على غيرها، ولم يذكر سبب ابتدائه بالمعلقات، وإن كان للعامل الزمني ربما سبب في تقديمها، ولم يعلل سبب اختلاف معيار الاختيار في باب المراثي الذي اختاره بناء على الغرض بخلاف الأبواب الست الباقية التي اختيرت بحسب المستوى الفني كما انه لم يذكر الفروق الفنية الموجودة في الطبقات ولم يذكر

(1) الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر العربي د. كمال ابو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986: 672-673.

(2) جمهرة أشعار العرب: 1.

(3) الرؤى المقنعة: 676.

(4) جمهرة أشعار العرب: 1.

(5) م.ن: 108.

سبب تفضيل قصيدة على أخرى ولم يوازن بين القصائد وهو في هذا يوافق سابقه من أصحاب الاختيارات في طريقه اختياراتهم من حيث الافتقار إلى التعليل.

كما يلاحظ على قصائد الجمهرة أن عدداً غير قليل منها قد وردت عند كل من المفضل (ت164هـ) والأصمعي (ت216هـ) في مختاراتهما من ناحية، ومن ناحية أخرى فأن القرشي (ت170هـ) قد أبدى اهتماماً بالشعراء المشهورين المكثرين مثل: الفرزدق، وجربير، والأخطل، وذي الرمة، والحطيئة، والطرماح وغيرهم، وهو في ذلك يخالف المفضل (ت164هـ) وصاحبه الأصمعي (ت216هـ) مخالفة جوهرية في منهج اختيار القصائد.

ونجد أن القرشي (ت170هـ) " قد قيد نفسه باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر من الطبقات السبع، فكان مجموع المختارات تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً، وهو في هذا يختلف عن المفضل الضبي والأصمعي اللذين كانا كثيراً ما يختاران للشاعر الواحد أكثر من اختيار"⁽¹⁾.

ويذكر سبب اقتصاره على قصيدة واحدة لكل شاعر مخالفاً سابقه بقوله " فهذه التسع والاربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ونفس شعر كل رجل منهم"⁽²⁾. ولعل الجملة الأخيرة " تتضمن تفسيراً للاقتصار على اختيار قصيدة واحدة لكل شاعر، فالمراد من هذا أن تكون القصيدة ممثلة لشعر الشاعر كله (ممثلة لنفسه الشعري) والقصيدة التي هذا شأنها هي ما اجتمعت لها كل الشخصيات الفنية التي تميز شاعراً وتكشف عن طاقاته الإبداعية"⁽³⁾. فتقافة ابي زيد القرشي تنزع نزوعاً قديماً، رصدته مقولاته ومواقفه من الشعر والشعراء التي ضمنها مقدمة.

مصادر البحث

- * تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، تحقيق: شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، 1957.
- * جمهرة أشعار العرب، ابو زيد القرشي، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
- * حماد الراوية وجهوده في راوية الشعر العربي، د. حاكم الكريطي، مجلة المورد الثقافي، ع3، مجلد 36، 2009.
- * الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر العربي د. كمال ابو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986.
- * المصادر الادبية واللغوية في التراث العربي، عز الدين إسماعيل، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، د.ت.
- * المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، 1972.
- * منهج التأليف عند العلماء العرب: مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، ابريل، 1991.
- * مؤلف جمهرة أشعار العرب، د. مصطفى جواد، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع، 1960.

(1) المصادر الادبية واللغوية في التراث العربي: عز الدين إسماعيل، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، د.ت: 85.

(2) جمهرة اشعار العرب: 107

(3) المصادر الادبية واللغوية في التراث العربي: 85.